المشكلة الخلقية عند الفيلسوف الوجودي

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

قد يكون من نافلة القول ان نقرر ان الانسان الحديث قد استحال ـ في ظل النظام الرأسمالي ـ الى مجرد « سلعة » ، وانه قد اصبح يعد قواه الحيوية مجرد «رصيد» يضعه موضع الاستثمار ، بغية الحصول على اكبر قسط ممكن من الربح ، وفقا لما تقضي به حالة السوق ! والواقع ان العلاقات البشرية ـ في المجتمع الرأسمالي الحديث ـ قد اصبحت خاضعة تماما لقوة منظمة كبرى هي « السوق» فليس بدعا ان نجد انسان القرن العشرين يجعل طمأنينته النفسية رهنا بالبقاء الى جوار القطيع ، فلا يكاد يقوى على مخالفة اساليب جماعته في التفكير والوجدان والتصرف. ولئن كان المجتمع الرأسمالي هو في حاجة دائما الى افراد يشعرون بانهم احرار مستقلون ، ولا يجدون انفسهم مستعبدين لاي مبدأ او سلطة او ضمير ، الا انه في الوقت نفسه يتطلب من هؤلاء الافراد ان يكونوا على اتم استعداد للخضوع ، وان يقبلوا عن طيب خاطر على فعل مايطلب منهم اداؤه ، وان يتكيفوا مع الجهاز الاجتماعي دون ادنى احتكاك او اصطدام . ومن هنا فان الفرد ـ في ظل النظام الرأسمالي الحديث ـ انما يوجه دون قسر ، ويقاد دون حاجة الى قائد « او زعيم » ، ويدفع الى الامام دون ماهدف او غاية ، اللهم الا لكي يكون ترسا صالحا في الالة الاجتماعية ، بحيث يتحرك ، ويعمل ، ويؤدي وظيفته ، دون ان تكون له اية مبادأة شخصية ، او أي نشاط مستقل . (١)

ولكن على الرغم من ان كل فرد في المجتمع الحديث قد اصبح احرص مايكون على البقاء الى جوار الاخرين ، الا ان كل تلك الاساليب المشتركة او الطرق الموصدة التي اصبح الناس يصطنعونها في الاكل والشرب والحب والزواج والعمل والتسلية وقضاء العطلات « وما الى ذلك » لم يكن من شأنها سوى ان تزيد من شعور كل واحد منهم بالعزلة . ومن هنا فقد تزايد لدى الكثيرين الاحساس بعدم الطمأنينة ، والشعور بالقلق ، وكان من آثار هذه العزلة البشرية الاليمة ان نشأ لدى الكثيرين احساس مرضي بالاثم حقا لقد حاول الانسان الحديث القضاء على هذا الشعور الاليم بالوحدة ، عن طريق روتين الحياة البيروقراطية الالية، كما حاول التغلب على يأسه اللاشعوري بروتين التسلية والاستهلاك السلبي للاصوات والمشاهد التي تقدمها له صناعة التسلية ، فضلا عن التجائه الى لذات شراء الاشياء الجديدة ، ثم استبدالها بغيرها ... الخ ، ولكن كل هذه الاساليب المصطنعة في القضاء على شعور الفرد باغترابه عن ذاته aliénation لم تستطع ان تحقق له الاحساس بالامن او الشعور بالطمأنينة . ومن هنا فان استهلاك السلع المختلفة من اغذية ، ومشروبات ، ولفائف تبغ ، وافلام ، وكتب ، ومحاضرات ، ومشاهد ، واصدقاء، وعلاقات جنسية « وما الى ذلك » لم يكن من شأنه سوى ان يزيد من شعور الفرد بالخواء vide خصوصا وقد اصبحت الموضوعات الروحية نفسها في مجتمعه مجرد موضوعات للمبادلة والاستهلاك !

ثم جاء دعاة « الاخلاق الوضعية » فحاولوا ان يوفروا على انسان العصر الحديث مشقة « الاختيار » option وكان ليس في السلوك لحظة فردية تتوقف على قرارنا الشخصي ، فحملوا بشدة على الطابع الشخصي للاخلاق الفلسفية ، وذهبوا الى ان دراسة السلوك البشري دراسة علمية تقوم على التحديد الموضوعي . وما دام الانسان ـ في نظر هؤلاء ـ لايخرج عن كونه مجرد « شيء » يدرس من الخارج ، او مجرد « موضوع » نحدد سلوكه تحديدا علميا، فان الاخلاق لايمكن ان تكون الا علما لا شخصيا موضوعيا. ولكن دعاة الاخلاق الوضعية ينسون او يتناسون ان المشكلة الخلقية هي في اصلها مشكلة شخصية تقوم على ضرورة « الاختيار » التي لا مندوحة عنها . فنحن « ملتزمون » engagés دائما في صميم الحاضر ، ووجودنا انما ينقضي في غمار ذلك الواقع الشخصي الذي لايكف عن التكون ، والذي يضع مصيرنا الخاص نفسه موضع المخاطرة في كل لحظة . وعبثا يحاول اصحاب النزعة الاجتماعية ان يهيبوا بنا ان نأخذ انفسنا بقواعد الجماعة ، أو ان نعمل على مسايرة قيم المجتمع ، فاننا لانملك سوى أن نظل فريسة للعالم ، وان نختار بين المعاني العديدة الممكنة للحدث événement ذلك المعنى الذي يتناسب معنا ، او الذي يجيء على صورتنا ومثالنا . ونحن حين نختار معنى « الحدث » ، فاننا نختار عالمنا ، ونختار ايضا انفسنا . وليست شتى المحاولات الاجتماعية والوضعية التي يقوم بها بعض المحدثين من اجل صبغ الاخلاق بالصبغة العلمية سوى مجرد صورة مقنعة « بتشديد النون » من صور « الحتمية » الصارمة التي تجعل الفرد خاضعا لمصير سابق محتوم ، بحجة انه لا « خلاص » للفرد الا بالاندماج في نظام علوي يضمن له السلامة الاخلاقية . وهكذا ينأى اصحاب الاخلاق الوضعية بالشخص الانساني عن مملكة الحرية والاختيار وتقرير المصير ، لكي يهيبوا به ان يسمو بنفسه نحو مستوى « الكلية » المجردة ، حيث يكون في وسعه ان يتخلص من كل مسئولية .

بيد ان الفيلسوف الوجودي حين يمعن النظر الى كل تلك المذاهب الاخلاقية الموضوعية ، فانه لايملك سوى ان يعتبرها مجرد اساليب جديدة للتعبير عن سلوك التملص او الفرار او الهروب évasion وسواء قلنا

---

(١) Cf. Erich Fromm: « The Art of Love », Unwin, London, 1962, pp. 63 - 64.

وللمؤلف نفسه كتاب اخر بعنوان« المجتمع السليم» The Sane Society ترجم الى اللغة العربية اخيرا ، وهو يتعرض فيه بعمق ونفاذ لظاهرة اغتراب الانسان عن ذاته في المجتمع الرأسمالي الحديث .

بمذهب اخلاقي يعتمد على التنظيم الجماعي ، ام قلنا بأخلاق علمية تستند الى تحديدات موضوعية ، فاننا في كلتا الحالتين انما ننادي باخلاق مجردة ترد الجانب الشخصي في الحياة الخلقية الى « ضمير الغائب » وتجعل من « الحرية الشخصية » مجرد حقيقة سلبية محضة . ومن هنا فان السلوك الخلقي لايلبث ان يستحيل ـ على يد اصحاب هذه الدعوات ـ الى مجرد « تنازل عن الذات » ، واتجاه نحو النظام ، وكأن ثمة نسقا جاهزا من القيم يتكفل بحل شتى المشكلات التي قد تثور في نفس الموجود البشري وهكذا تصبح كل مهمة الانسان ان يندمج في « نظام عقلي » محدد ، سواء أكان هو « المجتمع » أم « التاريخ » أم « العقل الجمعي » ، لكي يتسنى له عن هذا الطريق ان يكفل لنفسه اسباب الطمأنينة النفسية ، والتكامل الروحي . وكما كان اصحاب الاخلاق الدينية يحاولون ان يظهروا الموجود البشري على ان ثمة « حقيقة متعالية » او « قوة الهية » تضمن له سلامة التفكير والسلوك ، نجد ان دعاة « الاخلاق الوضعية » يحاولون ان يوفروا على الانسان كل استعمال شاق للارادة او القدرة على المبادأة initiative لكي يهيبوا به ان يلائم بين سلوكه وبين ماتقضي به اوامر الطبيعة ، او تقاليد الجماعة ، او معايير الثقافة Culture وفات هؤلاء واولئك ان انكار حق الشخص البشري في التصميم والتقرير الحر ، ان هو الا انكار للاخلاق نفسها .

حقا ان المجتمع الصناعي الحديث قلما يسمح للانسان بأن يختلي بنفسه ، أو أن ينزوي بعيدا عن أفراد القطيع ، ولكنه مع ذلك بمجرد ما يخلف وراء ظهره اقرانه في العمل أو النادي أو الحزب أو النقابة ، سرعان ما يجد نفسه وحيدا قد خلي بينه وبين ذاته ، فلا يلبث ان يتحقق من أنه مندمج في « موقف » خاص ، منخرط في لحظة معينة من لحظات تاريخه . وهو عندئذ قد يشعر بأنه ليس في وسعه تماما أن يسيطر على تلك اللحظة ، بل هو بالاحرى معانق لها ، مقيد بها ، مأخوذ في حبالها ... ومن هنا فان « المشكلة الخلقية » سرعان ما تنبثق في ذهنه بكل حدتها ، اذ يدرك أن بيت القصيد بالنسبة اليه أن يجد لنفسه مخرجا . ولكنه يفهم أن هذا المخرج لا يمكن ان يكون مجرد مخرج عقلي ينحصر في نطاق التفكير ، وكأنما هو بازاء حل نظري لمشكلة عقلية ، بل هو لا بد من ان يكون مخرجا وجوديا يرتبط بامكانية الحياة نفسها : لان عليه أن يلتمس لجسمه ونفسه فرصة مستقبلة يخاطر فيها بتحقيق ذاته ، واثقا من انه لا بد له من أن « يوجد » ، على الرغم من كثافة وجوده الواقعي ، وتناقض مطالبه الباطنية . (١)

والواقع أن « المشكلة الخلقية » هي أولا وبالذات مشكلة شخصية تتصف بالطابع التاريخي الدرامي الذي تتصف به أية خبرة أخرى معاشة expérience vécue ومهما فعل فيلسوف الاخلاق التقليدية ، أو عالم الاجتماع الوضعي ، فانه لن يستطيع أن يضع نفسه موضع الشخص الذي يجد نفسه ملزما بأن يفصل في مشكلة حياته . وكثيرا ما يعجز المحلل النفسي عن فهم المشكلات الشخصية التي يعانيها صرعى القلق والوحدة والوسواس والشعور بالاثم ، لانه يحاول أن يصب تجاربهم في قوالب جاهزة ، أو نصائح معدة من ذي قبل . وقد يستطيع عالم الاخلاق الاجتماعية أو صاحب التحليل النفسي أن يقدما لمثل هؤلاء الاشخاص بعض القواعد العامة أو التحديدات الكلية ، ولكنهما يخطئان بلا شك لو توهما أنهما يستطيعان أن يصوغا « الحقيقة الخلقية » أو « السعادة النفسية » في قوالب عامة مجردة تصلح لكل فرد ، وتنطبق على كل حالة . وذلك لانه ليس ثمة قانون عام يصلح لكل المواقف ، بحيث لا يكون على أي فرد منا سوى أن يستخلص منه بطريقة استنباطية صرفة بعض تحديدات نوعية أو نصائح خاصة لكل حالة فردية . بل ان بعض الفلاسفة الوجوديين ليذهبون الى حد أبعد من ذلك فيقررون أن الفيلسوف نفسه (والمحلل النفسي ايضا) لا بد من أن يظل مقيدا بموقف معين ، بحيث أنه قلما يستطيع أن يرى الاشياء الا من وجهة نظره الشخصية الخاصة . فليس في وسع المفكر ان يتخلص من تلك الظروف المعينة التي تحدد تفكيره الشخصي ، وليس في وسع المحلل النفسي أن يتحرر من تلك النظرة الخاصة التي توجه حكمه على الخبرات البشرية ، وبالتالي فان كل تقرير أخلاقي لن يكون ـ بطبيعة الحال ـ سوى وجهة نظر معينة في الحكم على الاخلاق ، أو طريقة ذاتية خاصة في حل المشكلة الخلقية .

والحق أنه قد يكون من بعض افضال الفلسفة الوجودية على الاخلاق أنها تلح على ما للعامل التاريخي الدرامي من أهمية كبرى في كل أخلاق فردية . فالوجوديون يؤكدون أن الفرد لا يحيا في عالم مجرد من كل سياق تاريخي ، بل هو انما يفصل في مصيره الشخصي وسط ظروف لا سبيل الى تحديدها بدقة وحين يحقق الفرد فعلا أخلاقيا ، فانه انما يقوم بضرب من « المخاطرة » في الحاضر والمستقبل ، مستخدما ما لديه من « حرية » في تحقيق بعض امكانياته . وليست « الحرية » التي يتحدث عنها هؤلاء من قبيل « الاستقلال الذاتي » الذي تحدث عنه كانط ، وانما هي حرية موجود مجاهد يعمل في مشقة وصراع وتوتر ، ويصارع نفسه والعالم والاخرين . واذا كانت الحرية عند كانط ترادف « العقل المنتصر » الذي استطاع أن يسيطر على ذاته وعلى الكون ، فان الحرية عند الوجوديين تساوي « الذات المجاهدة » التي تجد نفسها فريسة لنفسها وللعالم ، فتحاول جهد طاقتها أن تحقق حياتها بوصفها « صنيعة يدها » .

وهنا يقرر الفيلسوف الوجودي المعاصر جورج جسدورف أن الاخلاق الوجودية تقوم على الاعتراف بأولوية ضمير المتكلم ، وتدعو الى تأسيس السلوك على الحرية الشخصية . وليست الحرية ـ في نظر الفيلسوف الوجودي ـ حقيقة جاهزة معدة من ذي قبل ، أو مجرد معطى من معطيات الحس ، بل هي كسب يحصل كل يوم ، دون أن يستحيل يوما الى حصيلة ثابتة . ومعنى هذا أن الحرية الخلقية هي سعي شاق من أجل الانتقال من مملكة « الطبيعة » الى مملكة « الاخلاق » . ولكن الحرية لا بد من ان تظل ناقصة غير مكتملة ، لانها دائما في صيرورة مستمرة ، فضلا عن انها مزعزعة تفتقر باستمرار الى المزيد من الاستقرار . ومع ذلك ، فان هذه الصيرورة نفسها هي التي تضفي على وجودنا كل ما له من معنى ، كما أن ذلك التزعزع انما هو الذي يكشف عما لدينا من امكانيات لا بد من العمل على تحقيقها . ولعل هذا ما أرادت سيمون

---

(١) Cf. G. Gusdorf : « Traité de l'Existence Morale », Paris, Colin, 1949, pp. 40 - 41.

وانظر ايضا كتابنا « مشكلة الفلسفة » ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩

دي بوفوار أن تعبر عنه حينما كتبت تقول : « ان الحرية لتبدو لنا دائما على صورة حركة تحرر ... وحينما يريد الانسان ان يحقق النجاة (أو الخلاص) لوجوده ـ وهو وحده الذي يستطيع أن يقوم بهذا الفعل ـ فلا بد له من أن يسمو بما لديه من تلقائية أصلية الى مستوى الحرية الخلقية ، وذلك بأن يتخذ من نفسه غاية يعمل على الكشف عما تنطوي عليه من مضمون خاص فريد في نوعه » .

ولما كان من المؤكد أنها مهمة شاقة عسيرة بالنسبة الى الانسان أن يأخذ على عاتقه حريته الخاصة ، بما تنطوي عليه من شكوك ومخاطر ومغامرات ، فقد ظهرت في نطاق الاخلاق محاولات كثيرة من أجل التخلص من تلك الحرية ، سواء بالخضوع لقانون أخلاقي ، أم بالامتثال لحقيقة الهية ، أم باطاعة دينية ، أم باحترام معيار ميتافيزيقي ، أم باعتناق مذهب سياسي ، أم بالاندماج في منظمة حزبية ... الخ. وكل هذه المحاولات انما تخفي وراءها رغبة ضمنية في الاقتصار على الطاعة والخضوع ، بدلا من العمل على الابتكار وخلق الذات ... ولكن أي أخلاق تهدف الى القضاء على « الذاتية » ، أو استبعاد « الحرية » ، أو انكار «الشخص» البشري ، انما تفضي في النهاية الى هدم نفسها بنفسها . وآية ذلك أن فلاسفة الاخلاق التقليديين حين يتحدثون عن « القاعدة » ، و « القانون » ، وواجبات الذات نحو نفسها ، وواجباتها نحو المجتمع ، وواجباتها نحو الله ، فانهم انما يمزجون الاخلاق بضرب من « التقنين » أو التشريع الاجتماعي ، وكأن المشكلة الخلقية هي مجرد مسؤولية ، وقواعد ، وجزاءات . ولكن هذا التقنين الاخلاقي لا يصدق الا بالنسبة الى « ضمير الغائب » : فهو لا يتضمن سوى تحديدات خارجية تنصب على سلوك موضوعي صرف . وكل ما يهدف اليه مثل هذا التشريع القانوني انما هو صيانة النظام الاجتماعي ، وضمان سلامة صحة المجتمع . ولكن الاخلاق الفردية لا تجد في مثل هذه المعايير الاخلاقية سوى مجرد ظروف خارجية أو شروط موضوعية : فهي ترى أن من حقها أن تتخذ بازائها موقفا معينا ، وهي تعمد بالتالي الى قبولها أو رفضها أو التحايل عليها . واذن فقد يكون في وسعنا أن نقول ان القانون أو التشريع لا يحل المشكلة الخلقية ، على الرغم من كل تلك الضمانات الخارجية التي قد يكفلها لسلامة المجتمع . والسبب في ذلك أن المشكلة الخلقية تفلت بطبيعتها من كل تحديد خارجي ، أو من كل حتمية اجتماعية ، فهي لا بد من أن تظل قائمة على أشدها ، حتى حين تتوافر اطاعة القانون ، ومسايرة القطيع ، ومطابقة السلوك الخارجي لمعايير الحياة الجمعية .

وهنا قد يتساءل البعض فيقول : « ماذا عسى اذن أن تكون مهمة فيلسوف الاخلاق ؟ ألست أنا حرا في مواجهة مواقفي لحسابي الخاص ، وبالاستناد الى حريتي الذاتية ؟» وردنا على هذا التساؤل أن تدخل فيلسوف الاخلاق انما يتم عن طريق « الاتصال غير المباشر » فان كل مهمة الفيلسوف أن يعين الناس على الشعور بظروف وجودهم الخاصة ، وأن ينير أمامهم ذلك الافق المعين الذي يتحركون صوبه . ومعنى هذا أنه يمدهم بالوسائل اللازمة لفهم تلك المواقف الاصلية التي يجدون أنفسهم مندمجين فيها ، فضلا عن انه يحاول أن يحدد بعض « الثوابت » القائمة في التجربة ، مع ما يقترن بها من أساليب خاصة في الحياة (Styles de vie) ولكن الفيلسوف في كل هذا لا يفرض أي حل ، لانه يعلم علم اليقين ـ كما يقول جسدورف ـ أن عناصر هذا المصير الفردي أو ذاك لا بد بالضرورة من أن تغيب عنه . حقا أن الفيلسوف قد يستطيع أن يقدم لنا عناصر تعيننا على الاهتداء الى الحل ، كما أنه قد يساعد الذات على تحقيق اختيارها في ضوء معرفة أفضل وحرية أكمل ، ولكن اختيار الذات لا بد من أن يظل اختيارا شخصيا بحتا ، كما أنه لا بد أيضا من أن يخضع لمواقفها الذاتية الاصلية ، وان كان من شأن الوعي أو الاستبصار أن يزيد من درجة حرية هذا الاختيار ، ومدى شرعية نسبته اليها .

ومهما فعل فيلسوف الاخلاق ، فان تأثيره لا بد من أن يبقى « غير مباشر » . وآية ذلك ان الفيلسوف لا يستطيع أن يقضي على ارادة الغير ، أو أن يضع نفسه موضعهم ، بل كل ما يستطيع ان يقوم به هو أن يؤثر فيهم كما تؤثر النماذج البشرية ، والشخصيات الروائية ، والقديسون ، والابطال ، وكل من يستطيع أن يلعب دورا خلقيا خطيرا في الحياة العملية الشخصية لبني البشر . وليس المهم أن نحاكي هؤلاء محاكاة حرفية ، بل المهم أن نستمد من وقائع حياتهم وتصرفاتهم نبراسا نهتدي به ، والهاما نسير في ضوئه ، ورسالة روحية نستوحيها . والشخص الذي يقلد المسيح أو يحاكي محمدا لا يمكن أن يكون هو ذلك المعتوه الذي يكرر حركاتهما بطريقة آلية ، أو يردد أقوالهما عن ظهر قلب ، بل هو ذلك الشخص الحر الذي يبذل جهدا شاقا في سبيل التعبير بسلوكه العملي عما أظهرته تلك النماذج المثالية من سمو أخلاقي في صميم حياتها . واذن فان التأثر الخلقي الذي يصدر دائما عن أمثال هذه الشخصيات الاخلاقية الكبرى انما يتخذ طابعا غير مباشر ، دون أن يكون في ذلك أي قضاء على قوة الابتكار الخلقي لدى الشخصيات التي تستلهمها أو تستوحيها أو تسير على هديها .

لقد كانت الفلسفة التقليدية تحاول أن توصلنا الى أخلاق تصورية توكيدية ، تتكفل بحل كل مشاكلنا في عالم مجرد . وأما اليوم فان مهمة فيلسوف الاخلاق لم تعد تنحصر في العمل على اظهار كل شخص منا على حقيقة موقفه الخاص ، حتى يتسنى له ـ بحق ـ أن يصبح مالكا لزمام نفسه . فكل ما تقدمه لنا « الاخلاق الجديدة » انما هي عناصر (أو مواد) تعين كل فرد منا على تحقيق اختياره الشخصي الذي هو واجبه الخاص . وما دام لكل موجود بشري ذاتي متناقضاته الخاصة ، واحداثه الدرامية المشخصة ، فانه هيهات للفيلسوف (أو لعالم النفس) أن يحل لكل فرد منا مشكلته الخلقية الخاصة . حقا أن الفيلسوف يستطيع أن يعين كل فرد منا على أن يستجمع شتات قواه العقلية والوجدانية ، كما أن عالم النفس قد يساعدنا على تبديد أوهامنا ودعم طاقاتنا ، ولكن « الحدث » نفسه هو وحده الذي سيولد تصميمنا النهائي ، وليس للفيلسوف (أو عالم النفس) على الحدث بدان ! (١)

... ان المربي البصير ـ في عصرنا الحاضر ـ لم يعد يتوهم أنه يستطيع أن « يدرب » تلاميذه مجرد « تدريب »، بحيث يخلق منهم ما يشاء كيفما شاء ! حقا ان بعض الوالدين لا زالوا يظنون أنهم يستطيعون أن ينقلوا خبراتهم

---

(١) Gusdorf : « Traité de l'Existence Morale » , pp. 43 - 44 .

وانظر أيضا كتابنا « مشكلة الفلسفة » ، الطبعة الجديدة ، ١٩٦٢ ، ص ٢٢٤ .

بتمامها الى ابنائهم ، ولكن التجربة نفسها سرعان ما تثبت لهم انه لا سبيل مطلقا الى نقل الحكمة المكتسبة الى الاجيال الناشئة . وما دام سبيل الحياة لا بد من أن يظل دائما طريقا خاصا يضرب فيه كل فرد منا لحسابه الخاص ، ويخوضه دائما بمفرده ، فان فيلسوف الاخلاق لم يعد يستطيع اليوم أن يحاكي المربي الواهم الذي يعتقد أن خبرات الكبار حاسمة بالنسبه الى الصغار ، وانها لا بد من أن تفيهم وتعصمهم مواطن الزلل ! ولو كانت المشكلة الخلقية هي بهذا القدر من السهولة ، لما وجد على ظهر البسيطة سوى « الحكماء » و « القديسين » ! ولكن الفيلسوف الوجودي يعلم حق العلم أنه لا بد لكل جيل من أن يكون لنفسه حكمته الخاصة ، وأنه لا بد لهذه الحكمه من ان تجيء ملائمه لمقتضيات عصره وطبيعة مشكلاته . وهو يعلم أيضا أنه لا بد لكل فرد منا — في زمانه الخاص وموقفه الذاتي — من أن يعمل على اكتشاف شروط توازنه الشخصي . وحين يرفض الفيلسوف الوجودي كل اخلاق أزلية أبدية ، فانه يؤكد بهذا الرفض أن مثل هذه الاخلاق — ان وجدت — لن تكون ذات فائده كبرى بالنسبة الى الانسان : لان الانسان مخلوق معاصر ، أو كائن واقعي . فالاخلاق — في نظر الفيلسوف الوجودي — مغامرة كبرى او مخاطرة هائلة يحياها كل موجود بشري لحسابه الخاص، ومن ثم فانها لا بد من أن تظل « مملكة ذاتية » تعبر عن « التزام » الموجود المشخص أمام وحدته التاريخية الخاصة .

ان المجتمع الحديث ليضع في مقابل « الانسان الواقعي » الذي يدرك ، ويصمم ، ويتحمل مسؤولية افعاله ، « انسانا احصائيا » homme statistique هو عبارة عن عدد مجرد أو وحدة اجتماعية في مكتب الاحصائيات ! فلم يعد الفرد — في المجتمع الحديث — يملك حق « التصميم الخلقي » ، أو يأخذ على عاتقه مسؤولية تحقيق خلاصه الذاتي (أو نجاته الشخصية) ، بل أصبح يقاد ، ويغذي ، ويكسي ، ويربي ، ويسلي ، ويقوم كسلعة ، وكأنما هو مجرد « وحدة اجتماعيه » ليس لها أدنى قيمة ذاتية ! ومن هنا فان معنى الحياة الفردية لم يعد رهنا بالترقي الشخصي أو التطور الذاتي ، بل أصبح رهنا بسياسة الدولة التي تفرض من الخارج على سائر الافراد . وأما المشكلة الخلقية ذاتها فقد ذابت في طوايا المشكلات الاقتصادية والسياسية التي يواجهها المجتمع الحديث ، بحيث أصبح البعض يتوهم أن « السوق » وحده هو الكفيل بحل شتى مشاكل « العلاقات الاجتماعية » ، نظرا لانه هو الذي يتكفل بالفصل في شتى مشاكل « العلاقات الاقتصادية » . وبعد أن كانت « المسؤولية » فردية يتحملها كل فرد لحسابه الخاص ، أصبحت هناك قوة مجسمة تأخذ على عاتقها مسؤولية وجودنا ، الا وهي « الدولة » أو « المجتمع » أو « الهيئة السياسية » . وهكذا أصبح الفرد مجرد « دالة » للمجتمع ، وصارت « الذات الباطنية » أثرا بعد عين ! وجاءت الحقائق الاحصائية فزاعت الافراد بأعدادها الكبرى ، وزادت من شعورهم بتفاهة الشخصية الفردية وضآلة الذات الانسانية ! (١)

(١) Cf. C. G. Jung: « The Undiscoverd Self », Mentor Book, New - York, 1961, pp. 22 - 27.

وفي وسط هذه العوامل العديدة التي تتضافر على اخفات صوت « الحرية الفردية » ، وتكاد تقضي على كل ما للمشكلة الخلقية من أهمية حيوية بالنسبة الى كل فرد منا، تجيء الفلسفة الوجودية فتخاطب انسانا واقعيا يحيا في حقبة تاريخية بعينها ، وينتمي الى حضارة انسانية بعينها ، ولكنه يملك حياة شخصية يفعل فيها لنفسه وبنفسه ، ويسعى جاهدا في سبيل تحقيق « النجاة » le salut لذاته وبذاته . والفيلسوف الوجودي حين يحاول أن ينير السبيل أمام حريتنا الفردية ، فانه انما يكشف عما في « الانسان » من طابع « انساني » l'humain ولكنه يعلم حق العلم أن الكلمة الاخيرة في كل مصير بشري انما هي لتلك الذات المشخصة التي تأخذ على عاتقها مسؤولية وجودها ، محاولة أن تحيا حياتها لحسابها الخاص . وأخشى ما يخشاه المفكر الوجودي في شرقنا العربي أن يتناسى فلاسفة الاخلاق دورهم الخطير في هذه الفترة الحرجة من تاريخنا ، فيتنازلوا عن كل شيء لرجل الاقتصاد او الاجتماع او السياسة ، وكأن « الدولة » تتكفل وحدها بحل كل مشكلة خلقية ، أو كأن خلاص الفرد رهن بقيام ضرب من الرفاهية المادية ! ولا شك اننا لو احلنا « الفرد » في مجتمعنا العربي الراهن الى مجرد « وحدة اجتماعية » ، فاننا عندئذ انما ننساق وراء تلك النزعات الجماعية المتطرفة التي تتوهم ان سعادة الفرد انما تكون باذابته في فكرة مجردة يسمونها « الدولة » أو « المجتمع »!

الخرطوم — زكريا ابراهيم

في المكتبات

انا وسارتر والحياة

بقلم سيمون دوبوفوار

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

في هذا الكتاب الرائع تروي لنا الكاتبة الوجودية الكبيرة قصتها مع الرجل الذي كان شريك حياتها ، من غير أن يكون زوجها ، جان بول سارتر . وهي من خلال ذلك تقص تلك المغامرة التي ادت الى انتصارها : كيف اصبحت كاتبة الى جانبه . وكيف كانا وما يزالان يواجهان الحياة .

قصة رائعة ، عميقة ، نابضة بالحياة

منشورات دار الاداب — بيروت

الثمن اربع ليرات لبنانية او ما يعادلها